

تنزانيا (*)

أ. د. السيد أحمد العراقي

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: تاريخ الأقليات الإسلامية في العالم (الجزء الأول)

(أفريقيا)، (الطبعة الثانية) (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م). ص ص ١٠٣ - ١١٧ .

الفصل الرابع

تنزانيا

تتكون تنزانيا من اتحاد تنجانيقا مع جزيرة زنجبار ، وكانت تنجانيقا تخضع لألمانيا قبل قيام الحرب العالمية الثانية ، وبعد هزيمة ألمانيا في هذه الحرب ، أصبحت هذه البلاد تحت وصاية هيئة الأمم ، وكانت تديرها بريطانيا عن طريق الانتداب . ونالت تنجانيقا استقلالها في عام ١٩٦١م وانضمت لدول الكومنولث ، أما زنجبار فهي قريبة من ساحل تنجانيقا ، نالت استقلالها في عام ١٩٦٣م ، ثم انضمت في اتحاد مع تنجانيقا . وتم ميلاد تنزانيا ، بعد توحيد تنجانيقا وزنجبار في عام ١٣٨٤هـ الموافق ٢٧ إبريل ١٩٦٤م ، تحت اسم " تنزانيا الموحدة " . وأصبحت دار السلام عاصمة هذه الدولة ، وهي مدينة مطلة على المحيط الهندي . وتعتبر تنزانيا الآن منفذا لدول إفريقيا الداخلية كزامبيا وموزمبيق وغيرها .

وقد عرفت هذه البلاد الإسلام في فترة مبكرة ، وربما منذ القرن الأول الهجري ، عندما تدفقت موجات العرب على طول الساحل الممتد من زيلع وبربرة ومقديشو شمالاً حتى سوفالا جنوباً ، وذلك لأسباب دينية وسياسية ، فضلاً عن العامل التجاري والاقتصادي الذي كان بارزاً في جميع الهجرات العربية ، كما سبق القول . وقد كانت (تنجانيقا وزنجبار) مهد إمبراطورية الزنج الإسلامية ، وعاصمتها كلوه (وهي تقع في تنزانيا اليوم) وقد سيطرت هذه الدولة الإسلامية على جميع أجزاء الساحل الممتد من مقديشو شمالاً إلى سوفالا جنوباً ، يضاف إلى ذلك جزر (المحيط الهندي مثل زنجبار ومبا ومافيا ومدغشقر . وازدهرت حركة انتشار الإسلام في ساحل هذه المنطقة وفي داخلها . . . وازدهرت بصورة أكبر عبر العلاقات التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وبلدان شرق أفريقيا ، ثم موجات الهجرة القادمة من الشمال مع قبائل البانتو ، وقد تمكن المسلمون من بسط سيطرتهم على معظم المناطق الداخلية

من خلال الدعاة . كما خضعت زنجبار لنفوذ العرب من الشيرازيين مؤسسو سلطنة الزنج في كلوة ، ثم خضعت بعد ذلك لحكم السلاطين العمانيين حقبة طويلة^(١) .

ويعتبر ما كتبه ابن بطوطة الرحالة العربي المشهور الذي قام برحلة من طنجة عام ٩٣٤هـ (١٣٣٠م) لتأدية فريضة الحج ، من أهم المراجع عن أحوال إمبراطورية الزنج ، فقد زار ابن بطوطة مقديشو ومبسة ، كما زار كلوة حوالي سنة ١٣٣٢م ، في أيام السلطان أبي المظفر الملقب " بأبي المواهب " (١٣٠٨ - ١٣٣٢م) ، ووصف ابن بطوطة كلوة بقوله : (ركنا البحر إلى مدينة كلوة ، وهي مدينة ساحلية عظيمة ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم . ومدينة كلوه أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب ، وسقف بيوتها الديس ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل بالكفار والزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب)^(٢) .

ويضيف ابن بطوطة عن كلوه وسلاطينها ويقول : (كان سلطانها - يقصد كلوه - في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن ويكنى أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ، ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله ، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حده ، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها . ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جهاز ، ومنصور بن لييدة بن أبي غي ، ومحمد بن شمله بن أبي غي . وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء يأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف)^(٣) .

(١) المملكة العربية السعودية ودعم الأقليات المسلمة في العالم، ص ١٢٣ .

(٢) تحفة النظار، ص ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

ومما كتبه ابن بطوطة عن سلطنة كلوة ، وعظمة سلاطينها ، يوضح أن الإسلام قد دخل تنزانيا في زمن مبكر ، وأن الهجرات العربية من الجزيرة العربية والعراق وفارس كانت مستمرة ، بل وقد توغل العرب إلى داخل هذه البلاد واستقروا فيها بصفة دائمة ، حيث ازدهرت الزراعة والصناعة ، واشتهرت معظم مدن تلك البلاد ، بالنهضة العلمية والأدبية^(١) . وقد شن سلاطين سلطنة كلوة ، وأبرزهم السلطان أبو المواهب عدة حروب على القبائل الوثنية ، وأجبروها على اعتناق الإسلام ، ودفعت قبائل تلك البلاد المال المقرر لبيت المال في كلوة ، ويقوم السلطان أبو المواهب بتوزيع خمسها في سبيل الله ويحفظ الباقي . وبالمتحف البريطاني بلندن توجد بعض قطع من العملة التي كانت مستعملة في أيام السلطان أبي المواهب ، وهي عملات برونزية حملت اسمه في أحد وجهيها ، وفي الوجه الآخر كتبت العقيدة الإسلامية ، وعبارة (رافقك الحظ السعيد) ، إلا أنها لا تحمل تاريخاً معيناً ، وتوجد كذلك أنواع مختلفة من عملات برونزية تشير إلى عهد ابنه السلطان المقتول سليمان بن حسن^(٢) .

وقد ذكر باربوسا Barbosa وصفاً لازدهار كلوة التي زارها في حوالي

١٥١٧-١٥١٨م - فقال :

(.....) وعندما تركنا موزمبيق وصلنا إلى جزيرة عرفت باسم كلوة ، وهي مدينة للمسلمين العرب ، مبانيها في غاية الجمال والروعة ، بها نوافذ كثيرة ومنازلها أحدث طراز ، وشوارعها منظمة ونظيفة ، وسقوف منازلها مسطحة ، وأبوابها من الخشب ، وحول المدينة عدة قنوات ، وتجري فيها الأنهار ، ومياهها عذبة ، وعليها ملك مسلم . ويتاجرون مع سوفالا ، ويجلبون منها الذهب ، ويرسلونه إلى كل أنحاء الجزيرة العربية وحتى الحبشة ، وساحل البحر به قرى يسكنها العرب

(١) تحفة النظار، ص ١٩٤، Reusch, Op. Cit., p. 173.

(٢) تحفة النظار، ص ١٩٣ - ١٩٤، Freeman, Op. Cit., p. 39.

Walker, Art, Kilwa, (Encyce. of Islam). Vol. 111, p. 116. Reusch, Ibid, p. 172.

المسلمون... (١) .

وأضاف باربوسا (١٠٠٠) وعند وصولنا للساحل كانت كل مناطق مسلمي
سوفالا ، قواما، وانقويا ، وموزمبيق ، تخضع لملك كلوة الذي يتمتع بنفوذ عظيم
عليهم . وفي هذه المدينة يتوفر الذهب . ولا تمر سفينة إلى سوفالا دون أن ترسو في
هذه الجزيرة . ويتمتع أهلها بالثروة والجاه ، ولديهم الذهب والحرير والقطن .
وتزين الجواهر والآلئ أيديهم (يقصد النساء) ، وهؤلاء المسلمون يتكلمون اللغة
العربية ، ويقرأون القرآن ، عقيدتهم راسخة في الإسلام (١٠٠٠) (٢) .

ويعرض باربوسا وصفاً لازدهار امبراطورية الزنج وأحوالها الاجتماعية ،
وتجارتها الرائجة ، وذلك عندما زار سوفالا حوالي عام ١٥١٧/١٥١٨ ، فقال :
(١٠٠٠) ونحن في اتجاهنا إلى الهند ، يوجد هناك نهر ليس له حجم كبير ، وهو الذي تقع
عليه مدينة للمسلمين تسمى سوفالا ، والتي استولى ملكنا على قلعتها (يقصد ملك
البرتغال) ، وسكن المسلمون منذ فترة طويلة من الزمن هناك ، ويتكلمون اللغة العربية
في هذه المدينة ، وعليهم ملك أصبح خاضعاً لملكنا ، ويصل المسلمون في مراكب من
مملكة كلوة ومبسة ومالندي ، ويجلبون معهم عدة ملابس قطنية وبعضها ملون ،
وأيضاً ملابس حريرية ، وكلها محملة في سفن كبيرة كذلك من مملكة كامبايا
Cambaya . ويتاجر المسلمون بها هناك مقابل الذهب ، ويرجع التجار فرحين
مسرورين . ويتاجر مسلمو سوفالا بعد ذلك بها مع تجار مملكة بنامتابا
Benamatapa ، الذين يأتون هم أيضاً محملين بالذهب ويتبادلون به . ويجمع

(١)

Dames, M.L. & Hakuyt, The Book of Daurte Barbosa, Vol.3, pp. 6 - 29,
1918.

(٢) انقويا، مدينة عظيمة للمسلمين، لها حاكمها، بها عدد من التجار للذهب، العاج، الحرير، الملابس القطنية،
ويبحر إليها مسلمو سوفالا، مبسة، مالندي، وكلوة، ويجلبون منها الدخن والأرز واللحم. سكانها سود، وبعضهم
رمادي اللون. يلبسون الملابس القطنية والحريرية، ويلبسون العمامة على رؤوسهم، ويتكلمون العربية والسواحيلية،
إلا أنهم يتكلمون العربية بطلاقة. Dames, Ibid, p.20.

المسلمون أيضاً كميات كبيرة من العاج الذي يجذونه بصعوبة في سوافالا ، وهذا يبيعونه

أيضاً في مملكة كامبايا ، ويبيعون أيضاً اللؤلؤ والأحجار الكريمة التي تأتيهم من الحجاز، وهؤلاء المسلمون سود الأجسام ، وبعضهم يتكلم اللغة العربية ، ويلبسون الملابس القطنية والحريرية ، وبعض الملابس الأخرى ، يضعون على رؤوسهم عمامة ، وبعضهم يضع طاقية صغيرة ، وطعامهم الدخن والأرز واللحم والسمك . وهناك صناعة غزل القطن ، ويصنعون الملابس القطنية البيضاء والملونة الجيدة^(١) .

مما تقدم ، يمكن القول ، أن الإسلام واللغة العربية ظفرا بنجاح كبير في تنزانيا منذ العصور الإسلامية الأولى ، الأمر الذي يدعو إلى دراسة الدور الكبير الذي قام به الدين الإسلامي واللغة العربية في تقدم تلك البلاد وتطورها ، فقد أصبحت عن طريق الإسلام والعلوم الإسلامية العربية عظمة الحضارة ، والتقدم ، وشكل الإسلام عادات السكان ، وطور أحوالهم ، حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره أو يفوقه في الدول المعاصرة في أوروبا المسيحية ، خلال فترة العصور الوسطى ، ولذلك ليس من سرف القول: أن العصور التاريخية الزاهرة لبلاد شرقي إفريقيا تقترن بالإسلام ، لأن هذه البلاد قد تطلعت منذ القدم إلى البلاد الإسلامية في الشمال والشمال الشرقي من أجل العقيدة والمدنية . وكان العامل الجغرافي من أهم العوامل التي ساعدت على ذلك الاتصال والاكتفاء . لذلك يمكن القول أن هذه البلاد كانت مسرحاً لنشاط عربي وإسلامي مكثف مع شعوب تلك البلاد ، أدت إليه الهجرات العربية المتلاحقة . ثم تبلور عن ذلك النشاط قيام الإمارات العربية والإسلامية ، ومن ثم نمو وتطور الثقافة والحضارة الإسلامية وازدهارها . وأصبح الإسلام يسير بخطى ثابتة وواسعة من الساحل إلى الداخل ، فاعتنقت القبائل التي تسكن في الشواطئ ، وانتقل معها إلى

(١) توجد كل هذه الممالك: كامبايا وبنامتابا في الداخل من كلوة. وتغطي تنزانيا وموزمبيق، وزيمبابوي إلى جنوب إفريقيا، ويطلق المسلمون على مملكة بنامتابا اسم كافرس Cafres، وسكانها سود معظمهم مسلمون، ويتكلمون اللغة العربية، وتوجد في بلادهم بعض المعادن والذهب، وهم محاربون مهرة، ومعظمهم تجار أغنياء، ويتاجرون مع العرب في الساحل وعرب اليمن والحجاز. . Dames & Hakyut, Vol., (1), pp. 6 -29.

الداخل ، فانتشر بين بعض قبائل الزولو والبوشمن والبانو ، وتكونت على أثر ذلك مراكز استقرار في ممالك كامبايا وكافرس ، ثم كثر توافد المسلمين عليها بعد ذلك للأهداف التجارية والدينية . وامتزج المسلمون بالوطنيين في هذا الداخل وصاهروهم ، كذلك ظلت تلك البلاد التي أمها المسلمون ، ظلت - ولقرون عديدة - مراكز نشاط ومدنية ، وقواعد لنشر الثقافة الإسلامية بين القبائل الإفريقية في الساحل وداخله . وظلت الصبغة العربية هي البارزة والمميزة لتلك البلاد خلال فترة العصور الوسطى وإلى مطلع العصر الحديث . فأسهم العرب في هذه البلاد بالآداب والعادات التي اتصفوا بها ، وشاعت هذه البلاد بين بقية المجتمعات التي تعيش هناك . ولقد بقيت الثقافة العربية ، بل ظلت تعيش وتنتشر حتى بعد ذهاب نفوذ العرب والمسلمين السياسي غداة مجئ الأوربيين في القرن التاسع عشر .

والجدير بالذكر أن أعلام المسلمين في تلك البلاد ، فكروا بالعقلية العربية الإسلامية، وكتبوا باللغة العربية - وهم في إنتاجهم ونشاطهم ، إنما يعبرون عن حضارة عربية إسلامية، ولا غرابة في ذلك، وهم الذين نبتوا في ظل إدارة إسلامية ، وعاشوا في رعاية الدولة الإسلامية وكنفها . فالدين الإسلامي عامل هام من عوامل الانسجام بين الشعوب التي تدين به . والدين الإسلامي فضلا عن أنه عقيدة ، فإنه كذلك نظام اجتماعي كامل ، ومجموعة من الأخلاق والقواعد والأنظمة التي يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاه . ومن ثم استطاع الإسلام أن يمد أبنائه بجميع مقومات الدول وأساليب الحياة والسياسة والتشريع والحضارة .

لقد كان وما زال المجتمع في شرقي أفريقيا ، يتكون من أجناس متعددة ، وأمم مختلفة في صفاتها وعاداتها وثقافتها ، ولكن بعد إسلامها وبسببه أخذت تنصهر في بوتقة الحضارة الإسلامية ، واختلطت الدماء ، والنظم والأذواق اختلاطاً رائعاً ساعد عليه التزاوج بين الفاتحين وأهل البلاد المحليين ، ومن هذا الاختلاط نشأ جيل جديد ، يحمل مميزات عقلية وجسمانية خاصة عرف في التاريخ باسم العنصر السواحيلي ، ويتكلم لغة هي اللغة السواحيلية ، ويدينون بدين واحد هو الإسلام الذي وحد بين

هذه الشعوب المختلفة ، وكون منها - خلال العصور الوسطى - ما يصح أن يسمى أمة واحدة ، لها آداب واحدة ، وثقافة واحدة ، ومصير واحد ، يفسر ذلك جهاد المسلمين المتصل على طول الساحل وداخله وجزره ضد سيطرة البرتغاليين الذين حاولوا ضرب الحركة الإسلامية في هذه المنطقة والقضاء عليها .

وكانت القبائل العربية التي هاجرت إلى بلاد شرقي أفريقية ، تحمل معها دينها ولغتها العربية ، وكانوا يختلطون بالسكان ، وينقلون إلى لغات تلك البلاد ولهجاتها ، الكثير من كلماتهم ، خصوصاً ما كان متعلقاً بأمور الدين . لذلك سار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهاد في سبيل الله ، ونشر الإسلام ، وتوسيع رقعة البلاد ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية ، وذلك عندما أشار ابن بطوطة ، عند زيارته لكلوه ، أن السلطان أبي المواهب كثير الغزو لأرض الزنوج لنشر الإسلام^(١) .

لذلك احترام المسلم الأفريقي اللغة العربية احتراماً يقرب من التقديس ، لأنها لغة القرآن الكريم ، فيها يؤدي صلاته ، وبها يتلو القرآن ، وبواسطتها يلم بعلوم الدين . وقد نفح المسلمون في هؤلاء السكان حب الأدب وفنون الشعر . وخرج هؤلاء شعراء وخطباء مفوهون ، وأصبح لهم أدبا يعتزون به . ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في تلك البلاد ، هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها ، وهذه الهجرات قديمة وسابقة على دخول الإسلام ، وازدادت بانتشار الإسلام ، ثم إن مصاهرات العرب والفرس وغيرهم من دعاة المسلمين مع القبائل الأفريقية كالجالا والبانو وغيرهم ، ساعدت على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام ، فالسواحليون الشماليون - وهم من فروع الزيدية - يدعون أنهم نتيج المصاهرات بين العرب والصوماليين والجالا ، ومن أجل ذلك قالوا إن لهم أصولاً تنحدر عن عرب الجزيرة العربية . كما أن السواحليين الجنوبيين يدعون الانتماء إلى أسرة الحسن الشيرازي ، ويفخرون بماضي دولة الزنج المجيد^(٢) . أي أن الدماء العربية

(١) تحفة النظر، ص ١٩٣.

(٢) صلاح العقاد، جمال زكريا قاسم: زنجبار، ص ٢١.

أو المستعربة قد اختلقت وامتزجت بدماء أفريقيا السوداء. (١) ويحرص المتكلمون باللغة العربية في تنزانيا على الاحتفاظ بها حتى لا تطفى عليها اللغات المحلية ، ولاسيما لغة البانتو . كما أن اللهجة السائدة في زنجبار تغلب عليها اللهجة الحجازية. (٢)

وهكذا وجدت اللغة العربية تربة خصبة في تنزانيا ، بل ظلت كذلك حتى عصر الاستعمار البرتغالي الذي بدأ عام ١٤٩٧ م ، فعندما وصل فاسكوداجاما إلى الساحل عام ١٤٩٧ م ، وجد معظم أهل هذه البلاد يتكلم اللغة العربية ، كما وجد القرآن الكريم شريعتهم ، ومما أثار دهشته أنه وجد إمامهم باللغة العربية يفوق إمام أهل أوروبا الوسيطة باللغة اللاتينية . وجد كذلك أن الكثير يتكلم اللغة العربية بالإضافة إلى لغته الأصلية المحلية (٣) .

كذلك وجد البرتغاليون والأوروبيون من بعدهم ، عدداً كبيراً من المدارس التي تعلم القرآن واللغة العربية في كلوه وسوفالا وزنجبار . ووجد البرتغاليون ثم الإنجليز من بعد ذلك، جماعات من القبائل الأفريقية تتقن اللغة العربية ، وتعنى بإنشاء المدارس الخاصة لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية .

ورغم الجهود التي بذلها الأوروبيون للقضاء على اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في تلك الجهات ، وتحويل أنظار الأفريقيين عن مكة المكرمة والمدينة ودمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من عواصم العالم الإسلامي الكبرى ، فإنه فشل فشلاً ذريعاً،

(١)

Reusch, Op., pp. 218 - 219.

اللغة السواحيلية، تعرف باسم الـ كي سواحيلي - Ki - Swahili

كي: معناها اللغة - كي سواحيلي، معناها اللغة السواحيلية.

(٢) زنجبار، ص ٢١ .

(٣)

Duffy, James, Portuguese Africa, pp. 31 - 34, London. 1961. Dames, The Voyage of Pedro al - Vares Cabral to Brazil and India, p. 78, London, 1938. Sidney R., & Welch, p.d., Y.p., Portuguese Rule and Spanish Crown, in South Africa, 1581 - 1641. Cape Town and Johannesburg 1950, p. p. 1681 Seq.

إذ كان المسلمون والمستعربون من الأفريقيين يعمدون إلى إنشاء مدارسهم ومؤسساتهم الثقافية في المناطق الريفية النائية كما في زنجبار وتنجانيقا وموزمبيق وكينيا، *

لكن يلاحظ أن اللغة العربية لم تنسي القبائل الأفريقية لغتها الوطنية أو تطغى عليها ، بل ظلت هذه اللغات بجانب اللغة العربية ، لغة الدين والثقافة والحكومة والتجارة . بل أن اللغة العربية تركت أثرها القوي في جميع اللغات المحلية لدرجة كبيرة ، وظهر هذا الأثر واضحاً في اللغة السواحيلية أكثر من غيرها من اللغات المحلية، ويوجد في اللغة السواحيلية الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية استخدمت في كتابة اللغة السواحيلية منذ زمن مبكر ، واحتفظت اللغة السواحيلية بقيمتها وأهميتها التي اشتهرت بأنها اللغة السائدة **Lingue Franca** وهي لغة المعاملات المالية والتجارية ، في مساحات شاسعة تمتد من الصومال إلى روديسيا ، بحيث صار الإمام بها أمراً ضرورياً لجميع القبائل، لذلك لم تكتف القبائل الأفريقية بدخولها في الإسلام ، بل طبعت بطابع عربي ، بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد .

ولا يزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية المستخدمة في بلاد شرقي أفريقيا في شتى مظاهر الحياة : الدينية والثقافية والاقتصادية، وفي الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية ، وحتى في أسماء النباتات والمدن والحيوان والإعلام^(١) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في شرقي أفريقيا بجهود الإمارات الأفريقية الإسلامية ، فقد كانت اللغة العربية الرسمية السائدة ، واستخدمت في شتى الأغراض وأوفت بها . فاستخدمت في مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم هي لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول وبين العالم الإسلامي الخارجي . ووجد في الدواوين المصرية زمن المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة حكام تلك

(١)

Reusch, Ibd, p. 218 Seq.

البلاد ، لا بد من تصدير المكاتبات بها . كذلك كانت اللغة العربية هي السائدة في تسجيل شواهد القبور ، وقد عثر على عدد كبير من المقابر في تلك الجهات^(١) .

وقد ظلت اللغة العربية هي لغة التدوين والتسجيل والمراسلات في العهود والاتفاقيات ، وغير ذلك سواء في الساحل أو مع الدول الخارجية . ومنذ فجر التاريخ والقلم العربي هو القلم المعروف في تنزانيا قبل ظهور الاستعمار في تلك البلاد . واصبح الدين الإسلامي أساس التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية . والمعروف أن أساس الثقافة هي طريقة التعبير أي اللغة ، واللغة العربية اختلطت بلهجات البانتو عشرات القرون، وتوالد عنها لغة جديدة هي اللغة السواحيلية . ولما كان العرب والفرس تجاراً ، كانت نساء البانتو أو الوطنيات يحترفن الرعي والزراعة . فتعلم أبناؤهم من الآباء الكلمات العربية والفارسية التي لها صلة بالحرب والملاحة والتجارة والسلع المختلفة ، بالإضافة إلى مفردات الرحلات والفنون والانتاج وما يتعلق بالثقافة . وأخذوا من أمهاتهم البانتويات المفردات البانتوية التي تتعلق بالزراعة وتربية الماشية ورعيها ، والطعام والشراب، وبعض أمور الحياة اليومية^(٢) .

وعلى هذا ظهرت عضواً لغة جديدة هي خليط من العربية وبعض الفارسية مع اللهجات البانتوية المختلفة . ومن المحتمل أن يكون ثلثا الكلمات السواحيلية من أصل عربي - فارسي ، وما تبقى من ذلك من أصل بانتوي . وهذه اللغة السواحيلية الجديدة عرفت باسم الكي - سواحيلي ، وقد اشتملت فيما بعد على مفردات اللغة العربية والبرتغالية ثم الإنجليزية والهندية . وقد أصبحت اللغة السواحيلية لغة طريفة للغاية ، غنية جداً في مفرداتها، وجاءت حركاتها الحلقية من اللغة العربية . وقد تطلقت هذه الحركات بحيث يستطيع الأوربي أن ينطقها بسهولة . وقد أصبحت اللغة

(١) حمدي السيد: المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(٢) أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى، للمؤلف، ص ٣٣.

السواحيلية لغة التجارة ، وانتشرت بسرعة إلى داخل أواسط أفريقيا ، ويتكلمها الآن حوالي الخمسين مليون نسمة . وتعتبر اللغة السابعة في العالم . وهي الآن شائعة الاستعمال في بلاد تنزانيا والصومال وكينيا وبوغنده وموزمبيق وشرق الكونغو . وللغة السواحيلية أدب خاص ومتطور ووفير المادة وسريع الانتشار ، وأصبحت كذلك لغة المعاملات التجارية والمالية - كما سبق القول . بمعنى آخر أن اللغة السواحيلية هي اللغة السائدة . ورغم ارتباط العنصر السواحيلي واللغة السواحيلية بالدين الإسلامي ، والحضارة العربية والفارسية ، إلا أن الشخصية الأفريقية لهذا العنصر ولغته هي الصبغة القوية المسيطرة^(١) .

وفي مجال التعليم والحركة العلمية عامة ، وهو أخصب الميادين إنتاجاً في المكتبة العربية ، كان أساس التعليم العربي الإسلامي في تنزانيا وغيرها من بلاد شرقي أفريقيا ، حفظ القرآن الكريم وتفسيره ، ودراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية . ولقد ساعد الازدهار والرخاء التجاري الذي ساد في إقليم شرقي إفريقيا - خلال العصور الوسطى - على قيام نهضة علمية وثقافية شامخة . فقد كثرت الخلاوي وامتدت منتشرة عبر الساحل ، وزادت حلقات الدرس التي كان يقوم بالتدريس فيها علماء نابهنون في علوم اللغة العربية والفقهاء والتفسير حيث يفد إليهم الطلاب من أنحاء متفرقة . ولم تقتصر العلوم الدينية على الرجال ، وإنما امتدت لتشمل النساء أيضاً ، فقد نلن حظهن من القرآن الكريم والعلوم الدينية واللغة العربية . وكانت حلقات الدراسة تعقد في المساجد وفي بيوت الفقهاء حيث يأتي الطلاب في حماس شديد ، وغالباً ما تكون الدراسة عقب صلاة المغرب . ومن الكتب التي كانت تدرس: كتاب " سفينة النجاة " ، وكتاب " منجى الطالبين " للنسوي ، وكتاب " المقدمات الحضرمية في فقه السادات الشافعية " لعبد الله بن عبد الرحمن الحضرمي . وليس معنى هذا أن التعليم الديني كان يقوم على المذهب الشافعي وحده ، بل كان الكثيرون

(١) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص ٢٤٠ - ٢٤١، القاهرة، ١٩٦٣م. انظر أيضاً:

صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم، المرجع نفسه، ص ٢١ وما بعدها.

يتعاملون مع بقية المذاهب الأخرى : المالكية والحنبلية والحنيفية • وكانت حكومات الساحل ترسل البعث العلمية إلى الحجاز والعراق والشام ومصر لتلقى المزيد من العلوم^(١) • وكان لكل منطقة رباطها الخاص بها ، وبجانب العلوم الدينية كانت تدرس اللغة العربية وآدابها • وكانوا يعتمدون في تدريس النحو على الأجرومية وألفية ابن مالك ، وشرح ابن عقيل وقطر الندى لابن هشام • ومن الكتب التي اشتهرت عندهم في التفسير : تفسير الجلالين ، وهذا من غير شك للمكانة السامية التي احتلتها مؤلفات عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م) ، أحد الجلالين ، في تلك البلاد ، وربما أيضاً لأن تفسير الجلالين مختصر • كذلك كان لا بد من دراسة السيرة النبوية • ولمن يريد أن يكون معلماً ، عليه أن يلم كذلك بالتاريخ الإسلامي العام ، بجانب بعض الدراسات اللغوية والأدبية من شعر ونثر • ومن الكتب التي أقبلوا عليها مقامات الحريري • كذلك درست ودرست أمهات الكتب في العلوم الإسلامية المختلفة التي ضمتها مكتباتهم في كلوه وزنجبار ومقديشو ، كما كانت في زنجبار وكلوة سوق رائجة للكتب • ومن هذه المصنفات على سبيل المثال : صحيح البخاري - صحيح مسلم - أصول السبكي - مختصر خليل - ألفية العراقي - الموطأ - شفاء عياض^(٢) •

(١) حمدي السيد، المرجع السابق، ص ٣٢٦ - ص ٣٥٣. وانظر ايضاً: عرب فقيه، شهاب الدين، فوح الحبشة، (تحفة الزمان)، مخطوط نشره مع مقدمة بالفن نسية ريبنيه باسيه، حققه فهيم محمد شلتوت، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص ٧٥ وما بعدها. انظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ١، ص ٢٣٢، القاهرة، ١٣٥٣هـ. انظر كذلك: ابن تغري بردي، جمال الدين أبي الحسن يوسف تغري بردي: المهمل الصافي والمستوى بعد الوافي، تحقيق أحمد نجاني، ج ١، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٢٢٦ - ٢٢٧. (٢) الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ٢، ص ٤٠٢. القاهرة، ١٣٨٤هـ. عبدالقارة شيخ علي، تاريخ التعليم في الصومال، ص ٢١ - ٢٢ مقديشو ١٩٨٧. العمري، شهاب الدين بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٢، ورقة ١٨٣، ص ١١ - ٢١ - ٣، القاهرة، ١٩٢٤م. المقرئزي، أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م)، الإلمام، بأرض الحيش من ملوك الإسلام، ص ٧ - ٢٢، القاهرة، ٢٨٩٥م. السخاوي: المصدر نفسه، ص ٢٣٢، وما بعدها. السيوطي، جلال الدين، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ١، ص ٦٥١، القاهرة (بدون تاريخ).

لذلك أعطى المجتمع الإسلامي العلم والعلماء منزلة عالية ، وبنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للتزود من مناهلهم العلمية . وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية ، فتنوعت الثقافة ، وازدهرت الحركة العلمية والأدبية ، وتعددت العلماء والفقهاء . وركز السلاطين على الالتزام بخلق الإسلام في المجتمع (كما أشار ابن بطوطة إلى مكارم سلطان كلوه أبي المواهب ، وخلقته المتين) ، وأصبح لكل الدول الإسلامية المطلة على الساحل أو في الداخل قضاة ومحاكم شرعية وأئمة للمساجد وكتبة ومحتسبين ، مما يستدعي وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية . لذلك كان العلماء والفقهاء ذات وجود مؤثر في الحياة الثقافية والاجتماعية .

يتضح من هذا العرض السريع ، عمق الإسلام في تنزانيا ، كما أن اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، انتشرت على نطاق واسع في تلك المنطقة خلال فترة العصور الوسطى ، وأمتد أثرها وتأثيرها حتى العصر الحديث . فنجد أن اللغة العربية كانت اللغة الدولية في جميع تلك البلاد الإسلامية ، فهي لغة الدين والثقافة والتجارة ، ثم هي لغة الحكومة والإدارة والقضاء . كما أصبحت لغة تخاطب في كثير من بلاد تنزانيا وزنجبار والصومال ، مع وجود اللغات المحلية ، ثم هي من بعد ، لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات كما أن اللغة العربية لم تقض على اللغة المحلية في تنزانيا ، وإنما أثرت فيها تأثيراً كبيراً . أما وجه التفوق الذي ظفرت به اللغة العربية فينحصر في أن اللغة العربية اكتسبت صفة القداسة في تنزانيا وزنجبار والصومال ، لأنها لغة القرآن الكريم والصلاة والعلوم الإسلامية .

لقد توغل الإسلام - كما سبق القول - إلى داخل تنجانيقا ، كما أصبحت زنجبار كلها إسلامية منذ زمن مبكر ، وقد اندفع المسلمون إلى التوغل في الداخل بهدف المتاجرة والدعوة للإسلام ، فتوصلوا إلى نياسلاند (ملاوي حالياً) ، وبرزت

مراكز إسلامية بالداخل، كان منها في تنجانيقا طابورة وأوجيجي على بحيرة تنجانيقا ، وتانجا التي كانت من أكبر مراكز الثقافة العربية بالبلاد ، ونقل العمانيون العاصمة إلى دار السلام ، وكان الاستعمار البرتغالي من قبل قد دهم الإمارات الساحلية وشن ضدهم حرباً صليبية دمرت معظم مدن الساحل ، وبعد هذه المرحلة ازداد التنافس الاستعماري على أفريقيا ، وعلى المحيط الهندي ، وظهرت قوى استعمارية جديدة تمثلت في بريطانيا وألمانيا ، واقتسمتا دول آل (سعيد) في شرقي أفريقيا ، واستولت ألمانيا على تنجانيقا . فظهرت المؤامرات الاستعمارية تستهدف الإسلام والمسلمين في تنجانيقا وزنجبار ، فأصابت العرب أحداث دامية في زنجبار ، في سنة ١٣٨٤م ، وراح ضحيتها ٢٣ ألفاً من العرب والمسلمين (١) .

يتجمع المسلمون في تنزانيا في مناطق عديدة ، فالأغلبية العظمى من سكان جزيرتي بمبا وزنجبار مسلمة ، وإقليم البحيرة في تنجانيقا ، وتوما وفورا وتوشى وعروشة ، وكذلك سكان مدينة دار السلام ، وتبلغ نسبة المسلمين ٩٠٪ ، وكذلك ميناء تنجا ، والمدينة التاريخية كلوه التي تحفل بالمساجد والمدارس الإسلامية ، والغالبية المسلمة تتركز في النطاق الساحلي . وينتشر المسلمون في ولاية طابورة في الداخل وفي موشى وكيجوما وأوجيجي (٢) وتكمن المشكلة الحقيقية في سيطرة المسيحية على التعليم ووسائل الإعلام ، مما أسهم في تفشي الأمية والفقر بين المسلمين ، فضلاً عن تنشيط الحملات التنصيرية عبر وسائل الإعلام ويجد المسلمون في تنزانيا دعماً مادياً ومعنوياً من قبل دول إسلامية عديدة مثل المملكة العربية السعودية ومصر وسلطنة عمان ، غير أنهم بحاجة إلى المزيد من الدعم المادي ، وكذلك المعنوي المتمثل في صورة كتب إسلامية ودعاة متخصصين ، ومراكز إعلامية لمواجهة الإعلام الغربي والمسيحي الذي يسعى عبر وسائل غير مباشرة إلى تشويه صورة الإسلام في أفريقيا

(١) سيد عبدالمجيد بكر، المرجع السابق، ص ١٠٧. انظر: حسن محمود، انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا،

ص ٤٧٥.

(٢) سيد عبدالمجيد بكر، ص ١٠٨.

عموماً^(١) .

^(١) المملكة العربية السعودية ودعم الأقليات المسلمة في العالم، ص ١٢٤ .